جيل شيرين أبو عاقلة

محمد أبو الغيط

روت لي أمي، في طفولتي، عدّة مرات، قصة سلوى حجازي، أو «ماما سلوى» كما عرفها جيلها، كانت مذيعة برنامج «عصافير الجنة» الذي تعلّق به ملايين الأطفال المصريين، لذلك كانت الصدمة عميقة حين فقدوها في واقعة إسقاط الجيش الإسرائيلي طائرة الخطوط الليبية عام 1973. بعد كل هذه السنوات، كانت والدتي تروي القصة بتأثّر بالغ، كأن الطفلة التي عشقته «ماما سلوى» ما زالت هنا.

أيضاً كنت طفلاً، حين سمعت للمرة الأولى اسم مدرسة بحر البقر الابتدائية من ذكريات العائلة، لا من كتب التاريخ. كان مقتل ثلاثين طفلاً على مقاعد دراستهم عام 1970 صدمة لجيل من الأطفال المصريين الذين رأو الأشلاء الصغيرة لأقرانهم متناثرة حول المدرسة.

شهد جيلي المزيد من «البقع الحمراء» التي لا تزول. كان مقتل محمد الدرّة عام 2000 حدثاً فارقاً، وهي المرّة الوحيدة التي شهدتُ فيها طلاب المدارس الابتدائية والإعدادية ينظّمون مظاهرات تلقائية ترفع علم فلسطين. واليوم يضاف اسم شيرين أبو عاقلة إلى ندوب الذاكرة لدى جيلي، ولعله الجيل الأخير الذي مرّ بتجربة الذكريات التلفزيونية الموحدة، قبل تعدّد الفضائيات الإخبارية ثم عصر الإنترنت.

لهذا حفظنا أسماءً مثل طارق عبد الجابر وخميس أبو العافية مراسلي التلفزيون المصري في فلسطين. وبالطبع شيرين أبو عاقلة وجيفارا البديري وغيرهما من مراسلي قناة الجزيرة. لقد دخلوا منازلنا وصاروا كأفراد عائلاتنا، تراهم أمهاتنا أبناءً وتراهم إخوة.

دائما ما وُجد تيار يراهن على حل القضية الفلسطينية على يد جيل جديد، عربي وآخر إسرائيلي، سواء بالمعنى السلبي، أي قبول الأمر الواقع المفروض من المنتصر ونسيان الشباب العرب القضية وسط انشغالهم بهموم بلادهم، أو بالمعنى الإيجابي، أي إمكانية بناء الثقة بين الشباب العربي والإسرائيلي للوصول إلى سلام عادل، حقا لا اسما، سواء على أساس حل الدولتين أو حل الدولة الواحدة.

في كتابها «البحث عن فلسطين»، روت نجلا، ابنة المفكّر الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد، أنه بعدما استخدم هويته الأميركية ليحظى بأول زيارة إلى منزل أسرته بعد عقود من استيلاء إسرائيل عليه عام 1948، قال لها: «إن جيلي هو الذي أفسد كل هذا الأمر، ونحن مرتبطون جدا بما حدث في 48 و67 .. إلى حين أن نرحل، جيلي وشارون وعرفات، لن يتم فعل أي شيء. الأمر متروك لجيلك لإصلاحه».

ولكن الواقع أثبت الخطأ التام لفكرة الاعتماد على الزمن لتبريد الصراع، سواء بنيات حسنة أو سيئة، فالقضية ليست تاريخا، بل تتجدّد أمام أعين كل جيل. لم يشهد جيلي نكبة فلسطين، لكننا شهدنا انتزاع المنازل في الشيخ جرّاح وسلوان. لم يشعر جيلي باستفزاز الإنكار الإسرائيلي للمسؤولية عن إسقاط طائرة سلوى حجازي، لكننا شهدنا إنكار قتل شيرين أبو عاقلة. وكما كانت حياة شيرين مكرّسة لفضح الانتهاكات الإسرائيلية، فقد كان موتها كاشفا، حيث أكد التعامل الإسرائيلي مع الواقعة على مزيدٍ من تصاعد التيار اليميني بمؤسسة الحكم الإسرائيلية، وكذلك تصاعد سلطويتها، حتى إنها تطابق خطابات أنظمةٍ عربيةٍ استبدادية، لطالما تغنت إسرائيل سابقاً بتميزها الديمقراطي عنها.

أحد الأمثلة هو التعامل مع منظمة بتسليم الحقوقية الإسرائيلية، والتي أصدرت تقريراً يفنّد رواية مقتل شيرين على يد مواطنيها، حيث جرى تحديد موقع تصوير فيديو الجيش الإسرائيلي لما قال إنهم مسلحون فلسطينيون ومقارنته بموقع استشهاد شيرين، ليثبت أنه كان موقعا مكشوفا للجيش الإسرائيلي فقط.

سبق أن واجهت المنظمة حملات شرسة. هاجم نتنياهو الملياردير اليهودي الأميركي جورج سوروس، وهو نفسه الذي تتهمه أنظمة عربية بالمساهمة في «مؤامرة الربيع العربي». أجرى الكنيست الإسرائيلي عام 2016 تعديلاتٍ قانونيةً للتضييق على تمويل المنظمات. اعتبر السفير الإسرائيلي في الأمم المتحدة أن مكان رئيس مؤسسة بتسليم هو السجن، بعد شهادته أمام المجلس عام 2018، وكان جديد الحلقات تقدّم عضو الكنيست أفي ديختر، يوم الأربعاء، بتعديلاتٍ جديدةٍ تحظر تواصل المنظمات مع الجهات الأجنبية، بما في ذلك الاتحاد الأوروبي، وذلك حرصا على «الأمن القومي الإسرائيلي». مصطلحات أخرى تتشاركها السلطويات العربية.

أختنا شيرين، الموت لا يليق بك، لكنه إذا كان محتوماً فإن الأثر الطيب والإخلاص العظيم يحولان فناء الجسد خلوداً في القلوب، وإرثاً تعتزّ به الأجيال.

الشاهدة الشهيدة... واستحقاق قضيتها الدولية

محمود الريماوي

أمضت شيرين أبو عاقلة ربع قرن يمثّل النصف الثاني من ربيع عمرها، في توثيق الوقائع وروايتها بمهنية عالية وببسالة فائقة وذهن يقظ، وليس بين أربعة جدران أو خلف مكتب، بل في مناطق الخطر وتحت وطأة تيارات الضغط العالي للرصاص والقذائف. ولو قُدّض لعمرها أن يمتدّ لواصلت رسالتها بغير انقطاع، فقد واظبت على القيام بمهمةٍ رسولية، إذ تجدّ في سرد الانتهاكات والتعدّيات الجسيمة التي لا تنقطع يوماً بعد يوم، سعياً إلى ملاقاة يوم تتنفس فيه الصعداء مع أبناء شعبها وتَلتقط أنفاسها، حين يبزغ فجر الخلاص الوطني من الاحتلال الصهيوني البغيض. وقد حقّقت هذه الشابة الطموحة، منذ بواكير عملها، وبدعم من المنبر الذي فتح أبوابه لها، نجاحا باهرا في التدليل على أن الإعلام الإسرائيلي ليس مصدراً موثوقا للأخبار المتعلقة خصوصاً بحياة الشعب الرازح تحت الاحتلال، وقد تَحقّقت مع زملاء متمرسين لها في صنع إعلام متقدّم لا يلتفت إلى الحقائق، ولا يمشي قريبا بحذر وتلكؤ، بل يسعّي الأشياء بأسمائها، فهذا الاحتلال عدوّ للحياة وعدو للبشر، فينشط بالتنكيل بهم، بمختلف صنوف التنكيل والتقتيل، وعدو لم تعرف مدى عمق الأثر الذي يتركه حضورها على الشاشة وعلى أمواج دولية، وخصوصا لدى الديمقراطيات في الغرب التي «فوجئ» بعض مسؤوليها بحجم الوحشية الإسرائيلية في استهداف مراسة صحافية عزلاء. وبينما سعى القتلة إلى إسكات صوت الحقيقة، فإذ بنبأ استشهادها الأليم يتحول خلال ساعات إلى قضية دولية تتردّد أصداؤها في عواصم عديدة، بما في ذلك في أروقة الأمم المتحدة، وتتبدّى معها، مرة أخرى، صورة احتلال غاشم يعبّر عن نزعاته السلمية المزعومة بقتل المدنيين وترويعهم وهدم بيوتهم والاستيلاء على أرضهم ومياههم، ومناصبة رسل الحقيقة العداء القاتل.

والرهان الآن هو على الوفاء لدم الشاهدة الشهيدة، بمواصلة تعرية نظام الاحتلال العنصري ووضعه أمام المساءلة، وعلى شاكلة طلب المجموعة العربية في الأمم المتحدة إجراء تحقيق دولي مستقل، وهو ما طالبت به الأمانة العامة للمنظمة الدولية في إطار من التنديد الشديد بالجريمة، وكذلك ما تعهّدت به منظمة الصحافيين الدوليين بإحالة جريمة الاغتيال إلى المحكمة الجنائية الدولية، وضمن ملف يرصد جرائم الاحتلال ضد الصحافيين وقنوات الإعلام ويصدر الأحكام بشأنها، وهو ما تعهدت به أيضاً السلطة الفلسطينية حيال احتلال لا كفّ عن ارتكاب جرائمه، ويفرض، مع ذلك، تنسيقاً أمنياً على السلطة، تستجيب له بما يحفظ أمن المحتلين وحدهم دون الشعب الرازح تحت الاحتلال الذي يُستباح أمنه ليل نهار وعلى مدار الساعة، وهذا بعضٌ من رسالة شيرين أبو عاقلة، المهمورة بدمها الزكي طوال 25 عاما من المتابعة الدؤوبة والتقصّي الدقيق والتغطية الفورية والموضوعية بغير أن تكون منتمية لفصيل أو تيار حزبي أو محور سياسي، عدا الانتماء لقضيتها المقدّسة، قضية وطنها وشعبها، وهو ما أكسبها محبّة الملايين من الفلسطينيين والعرب الذين محضوها ثقة مستحقّة، ومعهم أنصار العدالة والحرية، وما فرض احترامها على المراكز الدولية التي تؤمن بحرية التعبير، ولا تجد مناصاً من احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها وتفعيل أحكام القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة وتصطدم بالصلف الإسرائيلي الذي يلقى تغطية سياسية تقليدية من واشنطن.

والثابت في هذه الأثناء، كما من قبل، أن استئناف دولة الاحتلال من المساءلة ووضع عقوبات عليها يهدد بإدامة الصراع ومفاقمته، كما يهدّد مصداقية إنفاذ القانون الدولي وتطبيق معايير العدالة، وإذ يهبّ المجتمع الدولي لمناصرة أوكرانيا في وجه الغزو الروسي، مع وضع العقوبات على الدولة الغازية، وهو أمرٌ حميد ومطلوب، فإنه واجب الاتباع حيثما كان هناك خرقٌ للقانون الدولي واستهتار بالشرعية الدولية وتعريض الشعوب ومقدّراتها للاقتلاع والتدمير، وهو حال شعب فلسطين منذ قرن، حيث يكتفي المجتمع الدولي بالوقوف متفرّجا أو يجري التواطؤ مع المحتلين وتقوية شوكتهم، كما كان الحال مع السجل محور سياسي، عدا الانتماء لقضيتها المقدّسة، قضية وطنها وشعبها، وهو ما أكسبها محبّة الملايين من الفلسطينيين والعرب الذين محضوها ثقة مستحقّة، ومعهم أنصار العدالة والحرية، وما فرض احترامها على المراكز الدولية التي تؤمن بحرية التعبير، ولا تجد مناصاً من احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها وتفعيل أحكام القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة وتصطدم بالصلف الإسرائيلي الذي يلقى تغطية سياسية تقليدية من واشنطن.

والثابت في هذه الأثناء، كما من قبل، أن استئناف دولة الاحتلال من المساءلة ووضع عقوبات عليها يهدد بإدامة الصراع ومفاقمته، كما يهدّد مصداقية إنفاذ القانون الدولي وتطبيق معايير العدالة، وإذ يهبّ المجتمع الدولي لمناصرة أوكرانيا في وجه الغزو الروسي، مع وضع العقوبات على الدولة الغازية، وهو أمرٌ حميد ومطلوب، فإنه واجب الاتباع حيثما كان هناك خرقٌ للقانون الدولي واستهتار بالشرعية الدولية وتعريض الشعوب ومقدّراتها للاقتلاع والتدمير، وهو حال شعب فلسطين منذ قرن، حيث يكتفي المجتمع الدولي بالوقوف متفرّجا أو يجري التواطؤ مع المحتلين وتقوية

> نالت ثقة أنصار العدالة والحرية وفرضت احترامها على المراكز الدولية التي تؤمن بحرية التعبير

الصحافيين وقنوات الإعلام ويصدر الأحكام بشأنها، وهو ما تعهدت به أيضاً السلطة الفلسطينية حيال احتلال لا كفّ عن ارتكاب جرائمه، ويفرض، مع ذلك، تنسيقاً أمنياً على السلطة، تستجيب له بما يحفظ أمن المحتلين وحدهم دون الشعب الرازح تحت الاحتلال الذي يُستباح أمنه ليل نهار وعلى مدار الساعة، وهذا بعضٌ من رسالة شيرين أبو عاقلة، المهمورة بدمها الزكي طوال 25 عاما من المتابعة الدؤوبة والتقصّي الدقيق والتغطية الفورية والموضوعية بغير أن تكون منتمية لفصيل أو تيار حزبي أو محور سياسي، عدا الانتماء لقضيتها المقدّسة، قضية وطنها وشعبها، وهو ما أكسبها محبّة الملايين من الفلسطينيين والعرب الذين محضوها ثقة مستحقّة، ومعهم أنصار العدالة والحرية، وما فرض احترامها على المراكز الدولية التي تؤمن بحرية التعبير، ولا تجد مناصاً من احترام حق الشعوب في تقرير مصيرها وتفعيل أحكام القانون الدولي وقرارات الأمم المتحدة وتصطدم بالصلف الإسرائيلي الذي يلقى تغطية سياسية تقليدية من واشنطن.

والثابت في هذه الأثناء، كما من قبل، أن استئناف دولة الاحتلال من المساءلة ووضع عقوبات عليها يهدد بإدامة الصراع ومفاقمته، كما يهدّد مصداقية إنفاذ القانون الدولي وتطبيق معايير العدالة، وإذ يهبّ المجتمع الدولي لمناصرة أوكرانيا في وجه الغزو الروسي، مع وضع العقوبات على الدولة الغازية، وهو أمرٌ حميد ومطلوب، فإنه واجب الاتباع حيثما كان هناك خرقٌ للقانون الدولي واستهتار بالشرعية الدولية وتعريض الشعوب ومقدّراتها للاقتلاع والتدمير، وهو حال شعب فلسطين منذ قرن، حيث يكتفي المجتمع الدولي بالوقوف متفرّجا أو يجري التواطؤ مع المحتلين وتقوية

مقطع سوري... الهوايتية في السياسة خيانة

راتب شعبو

حدثان هزّا الوجدان السوري أخيرا: الأول مجزرة يعود تاريخها إلى أبريل/ نيسان 2013، قتل فيها، بدم بارد، 288 مدنياً على يد عناصر تابعين للأمن العسكري، وصارت تسمّى في الإعلام «مجزرة التضامن»، لأنها وقعت في مخيم التضامن في دمشق، ويا لها من مفارقة أن تضاف هاتان الكلمتان إلى بعضهما. والثاني إشاعة عفو عن معتقلين بمناسبة عيد الفطر، جعلت الأهالي يهيمون على وجوههم وتطير بهم الإشاعات من مكان إلى آخر، ويتأمون في الطرقات منهكين شيء سوى القتل. قد نعتقد أن هذا الارتداد الدموي ناجمٌ عن خوف السلطة من «إرادة الشعب»، وقد يكون لهذا الاعتقاد محلّ، ولكن الأكثر ثباتاً أنه ناجم عن الاحتقار، عن استقطاع حقيقة أن يقف في وجهها بشرٌ لم يظهروا لها سوى التعظيم والاسترضاء والإسترحام. أن يقف هؤلاء «الحقيريون» عند كرامتهم أمرٌ يثير لدى السلطة غريزة السحق. هذا الارتداد الدموي المباشر للسلطة يشبه الارتداد العنيف للفلاح ضد الكلب الذي حاول أن يعوي كالذئب، أو الدجاجة التي حاولت أن تصيح كالديك. في الحالتين، يبدو ما تقوم به هذه الكائنات تعدّياً على ناموس الكون، ويستوجب القصاص من «المعتدين»، لإعادة الانسجام إلى سابق عهده.

ويكون ارتداد السلطة أعنف كلما كان البشر الذين يتحدّونها أقلّ شأناً في نظرها. إذا كان يمكن لمثل هذه السلطة أن تتحمّل شيئاً من احتجاج نخبة اجتماعية، فإن تحدّي العامة لها يحرّض صميمها العنيف على نحو مباشر، فتستجيب بصنوف قصوى من العدوانية والعنف. ويبقى السؤال، أين يكمن محرق هذه العدوانية؟ وكيف تتجسد؟ إذا كان مركز السلطة هو منبع العدوانية، فإن حضورها الكثيف يوجد في المحيط غير الرسمي الذي يمارس السلطة بأفظع أشكالها.

تجسّد التكثيف الأمثل لعدوانية سلطة الأسد في أبناء العائلة البعيدين عن السلطة الرسمية، والمتحزبين بالتالي من أي قيد، وإن كان شكلياً، يمكن أن تفرضه المؤسّسة. شكّل هؤلاء واقعاً فريداً يمكن تسميته حيازة «السلطة المحض»، نقصد المستقلة عن أي وظيفة عامة تتطلبها السلطة عادة. ببساطة، كان هؤلاء أفراداً «عاديين» ولكنهم يمتلكون سلطة دولة. وهم إلى ذلك أفرادٌ سيئون في أخلاقهم وفي تصوراتهم، وهل يمكن لأفراد هذا حالهم أن يكونوا سوى ذلك؟ وقد أفرزت التي تدرك أن تحت أشكال التأييد توجد حقيقة الرفض. هكذا استقرّت العلاقة عقودا، سلطة لا تشبع من احتقار محكوميها، ومحكومون تحكمهم غريزة الأمن والبقاء، فيبادلون المزيد من الاحتقار بمزيد من التغطيم، ويبتكرون صنوف الهرب والابتعاد عن الشر. تحطمت فجأة هذه العلاقة في مستهل ربيع 2011. أقصى ما يمكن أن يثير غريزة القتل لدى سلطة «أبدية» أن تواجه تحدّياً ممن تحتقرهم، أن يقف العبيد ويتحدّون السلطة التي كانوا يستصغرون أنفسهم أمامها. لا يمكن لسلطة الاحتقار أن ترتدّ على تحوّل كهذا سوى بالدم، لا يمكن أن يشفي غليلها شيء سوى القتل. قد نعتقد أن هذا الارتداد الدموي ناجمٌ عن خوف السلطة من «إرادة الشعب»، وقد يكون لهذا الاعتقاد محلّ، ولكن الأكثر ثباتاً أنه ناجم عن الاحتقار، عن استقطاع حقيقة أن يقف في وجهها بشرٌ لم يظهروا لها سوى التعظيم والاسترضاء والإسترحام. أن يقف هؤلاء «الحقيريون» عند كرامتهم أمرٌ يثير لدى السلطة غريزة السحق. هذا الارتداد الدموي المباشر للسلطة يشبه الارتداد العنيف للفلاح ضد الكلب الذي حاول أن يعوي كالذئب، أو الدجاجة التي حاولت أن تصيح كالديك. في الحالتين، يبدو ما تقوم به هذه الكائنات تعدّياً على ناموس الكون، ويستوجب القصاص من «المعتدين»، لإعادة الانسجام إلى سابق عهده.

ويكون ارتداد السلطة أعنف كلما كان البشر الذين يتحدّونها أقلّ شأناً في نظرها. إذا كان يمكن لمثل هذه السلطة أن تتحمّل شيئاً من احتجاج نخبة اجتماعية، فإن تحدّي العامة لها يحرّض صميمها العنيف على نحو مباشر، فتستجيب بصنوف قصوى من العدوانية والعنف. ويبقى السؤال، أين يكمن محرق هذه العدوانية؟ وكيف تتجسد؟ إذا كان مركز السلطة هو منبع العدوانية، فإن حضورها الكثيف يوجد في المحيط غير الرسمي الذي يمارس السلطة بأفظع أشكالها.

تجسّد التكثيف الأمثل لعدوانية سلطة الأسد في أبناء العائلة البعيدين عن السلطة الرسمية، والمتحزبين بالتالي من أي قيد، وإن كان شكلياً، يمكن أن تفرضه المؤسّسة. شكّل هؤلاء واقعاً فريداً يمكن تسميته حيازة «السلطة المحض»، نقصد المستقلة عن أي وظيفة عامة تتطلبها السلطة عادة. ببساطة، كان هؤلاء أفراداً «عاديين» ولكنهم يمتلكون سلطة دولة. وهم إلى ذلك أفرادٌ سيئون في أخلاقهم وفي تصوراتهم، وهل يمكن لأفراد هذا حالهم أن يكونوا سوى ذلك؟ وقد أفرزت

يتطورون المشمولين بعفو الأسد في دمشق الأسبوع الماضي (وائل بشارة/فرانس برس)

> في محيط كل مركز سلطة فعلية في الدولة الأسدية، نشأ امتدادٌ تشبيحي يحوز سلطة مستمدّة من سلطة المركز

هذه الظاهرة «الأسدية»، على مدى عقود حكمها، حوادث كثيرة لا معقولة في احتقار الناس، والتي يتذكّرها ويستذكرها طويلاً أبناء سورية، وأبناء اللاذقية بشكل خاص، بوصفها المحافظة التي نكبها الله بهم.

حول أصحاب «السلطة المحض» هؤلاء، نشأ جيش من الأتباع والمستفيدين الذين يشكلون الذراع التنفيذية المباشرة، وهؤلاء هم من غرفوا في سورية باسم «الشبيحة». هؤلاء لا ينتمون إلى مؤسسة الدولة، ولكنهم أعلى سلطةً من جميع السلطات الرسمية لهذه المؤسسة. إنها في الواقع دولتهم رغم أنهم خارجها. والواقع أن تماهي هؤلاء بالدولة السورية، توازى، كتفاً بكتف، مع اغتراب السوريين عنها، وتحوّلهم إلى ضحايا على يد «دولتهم».

الواقع أنه، في محيط كل مركز سلطة فعلية في الدولة الأسدية، نشأ امتداد تشبيحي يحوز سلطة مستمدّة من سلطة المركز. والحقيقة التي يعلمها السوريون، أن السلطة التي يمارسها هذا الامتداد في الوسط العام تكون، في أحيان كثيرة، أعلى من سلطة المركز المباشر الذي تستند إليه، نظراً إلى ما للشبيحة من صورة مخيفة في مخيلة السوريين، تجعلهم يتراجعون أمام كل من يبدو لهم أنه ينتمي إلى هذه الفئة. امتلاك سلطة بلا قيود يدفع، بطبيعة الحال، إلى الاستهانة بالآخرين واحتقارهم. ومن هذه الأرضية، يمكن فهم العدوانية الرهيبة لهؤلاء في التعامل مع «الآخرين» أو مع «الحثالة» الذين تجرأوا على تحدّي السلطة. يزيد في العدوانية ويدفعها إلى حدود جنونية، النظر الضمني إلى المحتجين على أنهم طائفيون لا يحرّكهم مطالب وحقوق، بل كراهية طائفية ضد العلويين، وغالباً ما تجري تغطية هذه النظرة بتحليل «رسمي» لا يقلّ تحقيراً، يقول إن الاحتجاجات ليست سوى عمالة وخيانة لخارج ما.

في النظرتين، المضمرة والمعلنة، هناك آلية إسقاط (projection)، الطائفي يرى الطائفية في خصمه، ومن خان عمومية الدولة وخصخصها بجعلها ملكية «أبدية» لعائلة، مستنداً أكثر فأكثر إلى الخارج، يرى العمالة والخيانة في خصمه. في الصراع السياسي، البحث عن مصادر طاقة هوياتية (دينية أو إثنية) لتحقيق كسب سياسي هو مسعى يعادل الخيانة، لأنه طريقٌ مفتوحٌ إلى العنف المعمّ في الفظاعات واللاعقلانية، وإلى مصادرة الصراع السياسي بوصفه كذلك، لصالح صراعات سيطرة وقتل وإبادة.

(كاتب سوري في فرنسا)

عظات شيرين أبو عاقلة

معن البياري

تحتشد عظاتٌ جليلةٌ غزيرةٌ في تطويق الفلسطينيين شهيدتهم شيرين أبو عاقلة بأكاليل مهيبةٍ من الحبّ المقرون بأحزانٍ عظيمةٍ أحدثها فيهم فقدانها الأليم، في جريمةٍ إسرائيلية موصوفة، وذلك في تقديرٍ كبيرٍ منهم لعطائها الإعلامي بمهنيةٍ وكفاءةٍ عاليتيْن، في نقلها على شاشة «الجزيرة» كفاح شعبها وصموده، وصلف المحتلين واعتداءاتهم اليومية، 25 عاما. وأولى هذه العظات أن لا شيء أبدا يمكنه أن يُنازع وحدة الفلسطينيين وائتلافهم عندما يعتنقون مناهضة الاحتلال ونبذه، وأنهم، أيضا، لم يتعبوا، منذ أكثر من مائة عام، من تظهير أيقوناتٍ منهم وبينهم، أخلصت لفلسطين وتفوقت وأبدعت. وما شوهد في جولات جثمان شيرين في غير مخيم وبلدةٍ ومدينةٍ فلسطينية، وصولا إلى وداعها الأخير في القدس، دلّ، من بين كثيرٍ دلّ عليه، على أن الزميلة القديرة لم تكن مراسلةً لمحطة فضائية شهيرة وحسب، وإنما كانت صاحبة دور وطني ثقيل القيمة، استحقّت عليه ما محضه لها شعبُها من مشاعر الإحساس بالخسران لغيابها في جريمة الإعدام الإسرائيلية الخسيسة، وما كرّمها به في أكثر من تشييع رسمي وشعبي، وما نثره عليها من عبارات الاعتداد بها، لتصبح واحدةً من رموز شعب الفلسطيني المؤكد في كل فلسطين وفي الشتات، لا سيما أن الموجة الواسعة في كل أركان الأرض من التنديد الساخط بجريمة قتلها عكست الاعتبار الخاص لجدارتها الباهرة في عملها صحافية، لم تتطق يوما بغير الحقيقة، وبغير المعلومة المؤكدة الموثقة بالصورة، فكانت، عن حقٍّ وحقيق، من عناوين الصحافة المسؤولة بكل حرفيةٍ ليس في وطنها المحتل فقط، بل في العالم كله، فاستحقّت من المتحدّثة باسم البيت الأبيض وصفها «أسطورة» صحافية. ولذلك، كان من طبيعي الأمور أن تكون شيرين أبو عاقلة اسما مزعجا لدولة الاحتلال، وأن ينفّض عملُها، وهي الفلسطينية المثابرة، المقدسية المجدّة، على أوهام إسرائيل عن نفسها.

وعندما يحشد جيش الاحتلال قواتٍ مسلحة، مجوقلة بالخيول والهراوات والرصاص والقذائف، لفرض شروطِه على تشييع شيرين إلى الكنيسة من المستشفى في القدس، وعندما يستنفر في المدينة القديمة المحتلة، من أجل أن يحرم الفلسطينيين من أحيائه يوم وطنيٌّ جامع مهاب، وبين ظهرانيهم ضيوفٌ عديدون، في تشييع ابنتهم الأيقونة حقا إلى مثواها الأخير في تراب المدينة المقدسة، عندما يقترف فعلته هذه، فإنه يؤكّد المؤكّد عن وحشيته التي لا سقوفَ لها، وعن انعدام احترامه جلال الموت ومهابة الفقد، غير أن الفلسطينيين استطاعوا أن يصنعوا يوما مجيدا لهم، اتحدّوا فيه، اتحدت فيه أجراس كنائس القدس، في حدث نادر، وأمكن لهم أن يصدّوا تدبير المحتلين ويفشلوا مقاصده وأغراضه، ولئن تذكّر زملاء المهنة جنازات الشهيد القائد ياسر عرفات والشاعر محمود درويش وقبلهما فيصل الحسيني، فإنهم لا بد لاحظوا ما حضر مُضافا في جنازة شيرين أبو عاقلة، في القدس التي سطّرت، يوم أمس، جديدا من فعل البقاء والصمود والمقاومة والتحرير، وقبل ذلك في مخيم جنين ونابلس ورام الله. وقد صدَق تماما قول زملاء، لشيرين إنها في جنازتها أنهت الانقسام الفلسطيني، المخزي في أقل نعوته. وفي الوُسع أن يضاف هنا إنها أجهزت على أوهام رهان عواصم إقليمية على صناعة زعيم فلسطيني من هذه الفئة أو تلك. يبيع ويشتري ويساوم ويقايض ويتنازل. وعندما تُخبرنا جيفارا البديري أن صديقتها وزميلتها شيرين أخبرتها غير مرّة أن من أمنياتها كان أن تغطي انتهاءً كاملا للانقسام الفلسطيني، فإن الواحد منا يتمنّى، من أهل الشأن والقرار في غير مطرح فلسطيني، أن يبادروا جميعا إلى الإفادة من الزخم الكبير الذي أحدثته فاجعة المصاب الثقيل، فيذهبوا إلى إنجاز ما تمنته شيرين أبو عاقلة، لا سيما أنهم مارسوا من التلكؤ واصطناع العراقيل واختلاق أسباب التنائي والتباعد ما قد لا يكون في وسعهم أن يضيفوا إليها جديدا.

ستكون إساءةً بالغةً إلى روح شيرين، رحمها الله، وهداياها من عظات ثمينة، أن يمرّ هذا التضامن الدولي الوفير مع أسرتها الصغيرة وشعبها، ومع الأسرة الإعلامية الفلسطينية، مرفقاً بالشجب العالمي لجريمة اغتيالها، من دون البناء عليه.

رصاصات المحتل ستصمت

بيار عقيقي

قاتل إسرائيلي، صباح 11 مايو/أيار 2022. استشهاد الإعلامية الفلسطينية شيرين أبو عاقلة. ثلاثية تختصر القضية الفلسطينية منذ نكبة 1948 وما قبلها وما بعدها. ثلاثية ما فتئ الاحتلال يسعى إلى تمييعها وإزالتها من الوجود. يريد الإيحاء بأنه ليس قاتلاً، ولطمس تاريخ كل شهيد وشهيدة، وعكس مفهوم الشهادة كي لا يترسّخ الحق. الإسرائيلي يعمل على تكريس أحقيته في أرضٍ اقتحمها بقوة السيف وظلمة العدل. يمكن تدبيج ملايين القصائد والأشعار لتخليد استشهاد شيرين، لكن ذلك لن يكفي لإنهاء البطش الإسرائيلي، في جنين والقدس وغزة وغيرها تبقى جذوة المقاومة مشتعلة، إذ لا يُمكن لأي صاحب حقٍّ التفاوض مع محتلٍ بمنطق الهزيمة. الإسرائيلي محتل، هذا واقع، وانطلاقاً من هذه النقطة يتم التعامل معه. عودوا قليلاً إلى الوراء، بضعة أيام لا أكثر. الاحتلال متمسكٌ بـ«القدس عاصمةً أبديةً لإسرائيل»، رافضاً حل الدولتين، ومبتعداً عن أي مفاوضاتٍ جوهرية، عدا تلك التفصيلية اليومية الحياتية، التي يُظهر فيها «إنسانيته» المشروطة. هذا هو الإسرائيلي، مهما عمل على تلميع صورته، ومهما ظلّ يستعين بالتاريخ ومعاداة الساميةِ والإبادة النازية لليهود، لتبرير «مخاوفه على وجوده» على حساب وجود الفلسطينيين.

الإسرائيلي قاتلٌ غادر، يقتل من يقاومه، خصوصاً إذا كان أعزل، ويخشى من يرفع السلاح بوجهه. لا أحد يعلم ما الذي كان يدور في رأس شيرين قبل استشهادها، ولا أحد يمكنه الادّعاء بذلك، لكن اندفاعها الشهود للإضاءة على الاعتداءات الإسرائيلية جعلها في موقع «الفرد الإضافي» في كل منزل. أجيال عدّة تعلّمت عن طريق شيرين من هي إسرائيل الحقيقية، لا إسرائيل التي حاول حكّامها رسم صورتها «الإنسانية» في أذهان الشعوب العربية. يعتقد الإسرائيلي أن الصوت الإعلامي المعادي له سيخفت بقتل شيرين، واستطراداً سيخشى كل مراسل من الانتقال إلى ساحات المواجهة لتغطية الاعتداءات، غير أن الإسرائيلي نفسه، وبلغته الخاصة، يعلم أن الأمر لا يتعلق بتراكماتٍ ما، بل بشرارة ستشتعل. التاريخ لا يتوقف، والاعتماد على الحرس القديم في القيادة الفلسطينية لقمع ثورةٍ فلسطينيةٍ آتيةٍ لم يعد يجدي نفعاً، والوقت الذي ستصمت فيه رصاصات القاتل وإلى الأبد لم يعد بعيداً. هذا ليس شعراً ولا قصيدة ولا تمنّياً. إنه واقع حتمي وواقعية لامتناهية. حين تكون محقّاً، سيعمل عدوّك كل ما في وسعه لطمس حقوقك، وسيحاول استغلال كل نقطة لصالحه. في المقابل، ستوفر له كل مسبّبات تفكّك الجبهة المواجهة، حين تنغمس في نقاشاتٍ عقيمة، دينياً وقومياً، من أجل تفسير مفهوم شهادة أي شخص، شيرين أو غيرها.

لم ينتصر الإسرائيلي بسبب قوته، بل لأن أصحاب الحقّ ارتضوا الغوص في الانقسامات القاتلة، وكأن القضية الفلسطينية تتمحور حول صراع هوياتيٍّ محض، لا حول حقوق مسلوبةٍ وضرورة تحرّر الإنسان من سجّانه. هذا ما يتكّل عليه الإسرائيلي: خلق متاهات صدامية داخل الجبهة المناوئة له، والإيحاء في المقابل بـ«تعدّدية خياراته السياسية»، علماً أن اليسار الإسرائيلي ليس سوى جناحٍ من أجنحة اليمين لا أكثر.

لا شيء أقبح من انتظار صمت صاحب الحق كي يفرض الظالم شروطه، ولا شيء أكثر بشاعة من إراقة الدماء، من أجل دفن الحقوق. لم تستشهد شيرين لأنها صحافية أو لأنه «صودف» وجودها قرب جنود الاحتلال. قُتلت لأن في قاموس الإسرائيليين رعبٌ من مارٍ قادرٍ على النهوض مرّة واثنتين وألف مرة، لكن في بال الاحتلال أن مساحة الانقسام المقابل أكبر من أن يتم توجيهها ضدهم. هذا ما اتكل عليه منذ عقود وما يعتبره «أمراً طبيعياً» سيتواصل. في يوم ما، سينتهي هذا الانقسام وستتدحرج كرة المقاومة.

جمهورية سعيّد الجديدة في تونس

محمد خليل برعومي

رغم تعدد دعوات الحوار الوطني في تونس لتجاوز الأزمة السياسية والاقتصادية الخانقة، ولطمأنة المتابعين الخارجيين، خصوصا الجهات المانحة التي تبحث عن الحد الأدنى من الضمانات السياسية والاستقرار الاجتماعي لإنجاح مفاوضات الحكومة التونسية مع صندوق النقد الدولي، إلا أن الرئيس التونسي قيس سعيّد يأبى إلا أن يجعله حوارا شكلانيا يجمع أنصار انقلابه المعلن في 25 يوليو/ تموز الماضي، ويستثني منه رافضي إجراءاته الذين يصفهم بالخونة والفاسدين في كل مرة. ومن الواضح أن الرجل لا يؤمن بالحوار، ومصرّ على تنفيذ أجندته السياسية الخاصة، وما اعلنه أخيرا من تشكيل لجنة لإدارة الحوار الوطني ليست إلا ذرّ رماد على العيون، ومحاولة للتخفيف من حدّة الضغوط الخارجية عليه. وهذه اللجنة ستتشكل من هيئتين، واحدة استشارية تسهر على صياغة دستور وقانون انتخابي جديدين للجمهورية الجديدة كما يسميها، يشارك فيها خبراء وأساتذة قانون دستوري موالون له، وهيئة أخرى لنقاش الوضعين الاقتصادي والاجتماعي، تشارك فيها المنظمات الوطنية ومن يختاره قيس سعيّد من الساحة السياسية، بما يجعل المسألة السياسية وموضوع الجمهورية الجديدة حكرا على الرئيس دون غيره، بحيث تفاصيلها وأركانها كما لو كانت ملكية خاصة، وليُلهي، في الأثناء، بقية المُنتظم المدني والسياسي الحاضي بقبوله بالشكلات الاقتصادية والاجتماعية، التي لم يعبأ لها يوما منذ توليه الحكم.

صحيح أن سعيّد سيعرض مخرجات هيئاته على الاستفتاء، ولكن بعد تنقيحه القانون الأساسي لهيئة الانتخابات وتعيين أعضاء جدد، غرفٍ بعضهم بولائهم له ومواقفهم المعادية لقوى المعارضة، بما فتح باب الطعن والتشكيك في نزاهة كل عملية انتخابية قادمة ومصداقيتها. هو الذي يعمل على تأسيس جمهورية جديدة، يحاول بعض أعضاء حملته التفسيرية تشبيهها بالجمهورية الخامسة في فرنسا التي أقيمت في عهد شارل ديغول سنة 1958، غير أنها، في ما يبدو، مستوحاة من التجربة المصرية بعد إعلان الرئيس المصري عبد الفتاح السيسي عن تأسيس جمهورية جديدة في بداية هذه السنة.

الأزمات الشرق أوسطية في مرآة التطورات المحتملة للحرب الأوكرانية

حسن نافعة

تشير التحليلات المتعلقة بالحرب في أوكرانيا إلى أنها مرشّحة ليس فقط للتصاعد، وإنما أيضا للاستمرار فترة طويلة، ما سيؤثر حتما، وإنْ بدرجات متباينة، على بقية الصراعات الدولية والإقليمية المحتدمة في مناطق أخرى، بما في ذلك إعادة تشكيل خريطة التحالفات والتفاعلات المتعلقة بمعظم هذه الصراعات. فروسيا، التي تقول إنها لجأت مضطرّة إلى استخدام القوة العسكرية ضد أوكرانيا لمواجهة تهديد وجودي شكله اقتراب حلف الناتو من حدودها الغربية، تبدو مصمّمة على مواصلة عملياتها العسكرية هناك إلى أن تتمكّن من تحقيق كامل أهدافها واستئصال التهديد الذي تتعرّض له، أيا كان الثمن المطلوب، حتى لو اضطرّت للدخول في حرب تستخدم فيها الأسلحة النووية. أما الولايات المتحدة، التي تقول إن الطموحات الشخصية للرئيس الروسي بوتين، المصرّ على إعادة فرض الهيمنة الروسية على مختلف المناطق التي كانت فيما مضى جزءا من الاتحاد السوفييتي، هي السبب الرئيسي وراء اندلاع هذه الحرب العدوانية غير المبرّرة، فتبدو بدورها مصمّمة ليس فقط على منع بوتين من تحقيق طموحاته وأهدافه، وإنما أيضا على إلحاق هزيمة استراتيجية بروسيا، حتى لو اضطرّت لمساعدة الحكومة الأوكرانية الحالية لخوض حرب استنزاف بعيدة المدى في مواجهة القوات الغازية.

نظرةٌ عابرة على الطريقة التي تدير بها الولايات المتحدة الصراع على الساحة الأوكرانية، بصرف النظر عن الطرف المتسبب في اندلاعه، تظهر، بوضوح، أننا لسنا إزاء محاولة لمساعدة دولة حليفة على مواجهة عدوان تتعرّض له، وإنما إزاء طرفٍ يعتبر نفسه مستهدفا بالصراع، وبالتالي شريكا فيه بشكل أو بآخر، فلم تكتف الولايات المتحدة بتقديم مساعدات إنسانية وعسكرية ضخمة لأوكرانيا، بلغت حتى حينه ثمانية مليارات دولار بالإضافة إلى ثلاثة أخرى قدّمها حلفاؤها الأوروبيون، وإنما قامت أيضا بتفعيل «قانون الإعارة والتأجير» الصادر قبيل مشاركتها الرسمية في الحرب العالمية الثانية، ومهد لدخولها في هذه الحرب، لتتيح الفرصة أمام أوكرانيا للاغتراف من مخازن السلاح الأميركي مباشرة، خصوصا أن إدارة بايدن طلبت من الكونغرس فتح اعتماد إضافي في الموازنة بمبلغ 30 مليار دولار لتمويل الاحتياجات العسكرية والإنسانية لأوكرانيا، وهو مبلغ ضخم بكل المعايير، يدل على أن الولايات المتحدة تستعد لحرب طويلة الأمد في أوكرانيا.

وتفيد تقارير صادرة عن جهات أميركية وغربية موثوق بها بأن الولايات المتحدة قدّمت أيضا معلومات استخباراتية سمحت للقوات الأوكرانية باستهداف الطراد الروسي موسكفا وإغراقه في بحر البلطيق، ومعلومات أخرى سمحت باستهداف جنرالات روس مشاركين في الحرب واغتيالهم، فإذا أضفنا إلى ما تقدّم أن الولايات المتحدة تمارس ضغوطا هائلة على كل من فنلندا والسويد، المحايدتين، للانضمام إلى حلف الناتو، كما تمارس ضغوطا هائلة، في الوقت نفسه، على حلفائها الذين لم يتخذوا موقفا واضحا وقويا لإدانة روسيا، لتبين لنا بوضوح تام أن الولايات المتحدة تعد نفسها طرفا مباشرا في هذه الحرب التي تتعامل معها بمنطق «من ليس معي فيها فهو ضدي، وعليه أن يتحمّل العواقب»، وهو منطقٌ ستكون له تأثيرات مباشرة على الصراعات الدائرة في مناطق أخرى، وفي مقدمتها منطقة الشرق الأوسط.

تعجّ منطقة الشرق الأوسط بصراعاتٍ لا حصر لها، تمتد من اليمن جنوبا إلى ليبيا شمالا، ومن سورية ولبنان شرقا إلى المغرب غربا، غير أن مستقبل المنطقة سيتوقف في المقام الأول على مصير الصراعات التي انخرطت فيها الدول الإقليمية الكبرى في المنطقة، وتحديدا إيران وتركيا وإسرائيل. ولأن هذه الدول الثلاث توجد وتتفاعل معا على الساحة السورية، جنبا إلى جنب مع كل من روسيا والولايات المتحدة، يمكن القول إن الأزمة السورية أصبحت المرآة العاكسة لمعظم أزمات المنطقة، ومن ثم ستكون هي الأشدّ تأثرا بالتغيرات المحتملة والمتوقعة في التحالفات الإقليمية والدولية المرتبطة بالصراع الدائر حاليا على الساحة الأوكرانية. لذا علينا أن نتابع هذه التغيرات عن قرب، خصوصا المتعلقة بمواقف إيران وتركيا وإسرائيل. صحيحٌ أن وضع إيران، في علاقتها بطرفي الأزمة الأوكرانية، يختلف عن وضع كل من تركيا وإسرائيل، غير أن مواقف هذه الأطراف الثلاثة تجاه عديد من أزمات المنطقة تتقاطع وتتصادم حينا، وتتوازى وتتقارب حينا آخر، ومن ثم ستتأثر جميعها تأثرا كبيرا بالتطوّرات التي يتوقع أن تشهدها الأزمة الأوكرانية خلال الأشهر القليلة المقبلة، فإيران، والتي لا تزال تنظر إلى الولايات المتحدة باعتبارها «الشيطان الأكبر»، تربطها بروسيا علاقات وثيقة، يحرص الطرفان على الحفاظ عليها وتنميتها باضطراد، على الأقل بحكم عدائهما المشترك للولايات المتحدة. ومع ذلك، قد تبدو إيران حريصةً على عدم إظهار تأييدها للحرب على أوكرانيا، مكتفية بإبداء تفهمها الدوافع والأسباب التي حدت بروسيا لشنها. ولأن الاهتمام الإيراني في هذه المرحلة يبدو مركّزا على مفاوضات فيينا حول شروط العودة الأميركية إلى الاتفاق الخاص ببرنامجها النووي، فمن الطبيعي أن تتعامل إيران مع حرب أوكرانيا من منظور ما قد تتيحه من فرص، أو ما تفرضه من قيود لدعم أو عرقلة قدرتها على تحقيق ما تسعى إليه من أهداف في هذه المفاوضات. ولأن الصدام الدائر بين روسيا والولايات المتحدة على الساحة الأوكرانية يساعد على دعم الموقف الإيراني في مفاوضات فيينا، فمن الطبيعي أن يزداد التحالف الإيراني الروسي متانةً وعمقا كلما طال أمد الحرب، الأمر الذي سيؤدّي، بالضرورة، إلى تنسيق متزايد بين الطرفين بشأن الموقف من القضايا والأزمات الشرق أوسطية، خصوصا الأزمات المحتدمة في سورية واليمن ولبنان وفلسطين... إلخ.

الوضع يختلف كثيرا بالنسبة لكل من تركيا وإسرائيل، فتركيا عضو مهم في حلف الناتو. ورغم محاولاتها المستمرّة لاتخاذ نهج مستقل عن السياسة الأميركية في أمور كثيرة، وهو النهج الذي عمّقته خلافات أميركية تركية حول المسألة الكردية، وحول قضايا تفصيلية أخرى متعلقة بتطورات الأزمة في سورية، ما دفعها إلى التقارب مع روسيا إلى الحد الذي مكّنها من شراء منظومة الدفاع الصاروخية إس 400 التي أغضبت الولايات المتحدة، إلا أن هذا النهج المستقل لا يمكنه الذهاب بعيدا، خصوصا في القضايا المتعلقة بحلف الناتو، فارتباطات تركيا مع هذا الحلف راسخة جدا وعميقة جدا إلى الحد الذي يجعل الانفكاك من إسار سياساته محفوفا بالمخاطر. ولإضفاء قدر من التوازن والاستقلالية حول سياستها تجاه الأزمة الأوكرانية، حاولت تركيا استغلال علاقاتها القوية بكل من روسيا وأوكرانيا للقيام بدور الوساطة بينهما، لكن لم يكن في مقدور هذا التحرّك أن يكلل بالنجاح، خصوصا أن ارتباطاتها بحلف الناتو دفعتها، من ناحية، إلى تقديم مساعدات عسكرية لأوكرانيا، كما دفعتها، من ناحية، إلى التجاوب مع الضغوط الأميركية الهادفة إلى إطالة أمد الأزمة، وليس تسويتها. لذا يمكن القول إن إطالة أمد الأزمة الأوكرانية يعقّد الخيارات المتاحة أمام السياسة الخارجية التركية، ويدفعها تدريجيا للكشف عن انحيازها الواضح والعميق للمعسكر الغربي، ما سينعكس حتما، وبطريقة سلبية، على المكانة الإقليمية لتركيا، ويعرّي مواقفها الحقيقية تجاه أزمات شرق أوسطية عديدة، خصوصا ما يتعلق منها بالأزمة السورية وبالقضية الفلسطينية.

> إطالة أمد الأزمة الأوكرانية سيترتب عليها مزيد من الاستقطاب الدولي والإقليمي بين روسيا والقوى المؤيدة لها، وبين الولايات المتحدة والقوى المؤيدة لها
>
> طبيعي أن يزداد التحالف الإيراني الروسي متانةً وعمقاً كلما طال أمد الحرب، ما سيؤدّي، بالضرورة، إلى تنسيق متزايد بين الطرفين

يبدو المأزق الإسرائيلي في الأزمة الأوكرانية أكثر وضوحا من نظيره التركي. فقد سعت إسرائيل دوما، ومنذ سقوط الاتحاد السوفييتي، لتوثيق علاقتها بروسيا الاتحادية، وهو ما نجحت فيه إلى حد كبير. وبعد قرار روسيا التدخل عسكريا في الأزمة السورية لدعم نظام الرئيس بشار الأسد، ازدادت حاجة إسرائيل للتنسيق الأمني معها، حتى لا يصبح الوجود العسكري الروسي في سورية عائقا يحول دون تمكينها من محاصرة ومنع انتشار النفوذ الإيراني في سورية، أو تعقب الإمدادات العسكرية الإيرانية لحزب الله عبر الأراضي السورية وضربها، وهو ما نجحت فيه أيضا إلى حد كبير. لذا، حين اندلعت الأزمة في أوكرانيا، حاولت إسرائيل تجنّب إدانة روسيا، وتظاهرت باتخاذ موقف محايد، بل سعت، في البداية، للقيام بدور الوساطة بين روسيا وأوكرانيا، مستغلة العلاقات الجيدة التي تربطها بالطرفين، غير أنه لم يكن بمقدورها أيضا أن تذهب بعيدا في هذا الاتجاه. صحيح أنها ليست عضوا في حلف الناتو، مثل تركيا، لكن علاقتها الخاصة جدا بالولايات المتحدة تعد أقوى بكثير من علاقة الولايات المتحدة بأي دولة أخرى، بما في ذلك الدول الأعضاء في الحلف. لذا لم يكن غريبا أن ينكشف تدريجيا الموقف الإسرائيلي الحقيقي من الأزمة الأوكرانية، وأن يتضح اصطفاف إسرائيل الفعلي والكامل مع الموقف الأميركي، الأمر الذي أدّى إلى إغضاب روسيا، وهو ما عكسته تصريحات وزير الخارجية الروسي، لافروف، أخيرا، عن علاقة زيلينسكي بالنازيين الجدد في أوكرانيا وعن أصول يهودية لهتلر! وقد أشارت تقارير إلى أن إسرائيل تحاول استغلال الأزمة الأوكرانية للتأثير على الموقف الأميركي في مفاوضات فيينا، ودفعه نحو مزيد من التشدّد تجاه إيران، بل ولمحاولة منع الولايات المتحدة من العودة إلى هذا الاتفاق، وربما جرّها إلى التنسيق معها لتوجيه ضربة عسكرية مشتركة، تأمل أن تقضي نهائيا على البرنامج النووي الإيراني. (راجع مقال الكاتب «إيران وإسرائيل والعودة الأميركية إلى الاتفاق النووي»، في «العربي الجديد»، 2022/4/30)

أخلص من هذا التحليل إلى أن إطالة أمد الأزمة الأوكرانية سيترتب عليها مزيد من الاستقطاب الدولي والإقليمي بين روسيا والقوى المؤيدة لها، وبين الولايات المتحدة والقوى المؤيدة لها، ما سينعكس، بالضرورة، على طريقة إدارة الأزمات والصراعات المحتدمة في منطقة الشرق الأوسط، خصوصا أن إيران والقوى الشرق أوسطية المتحالفة معها مرشّحة للانخراط بشكل أكبر في المحور الداعم للولايات المتحدة وحلف الناتو. ومن شأن هذا الاستقطاب أن يعجّل بانفجار صراع إقليمي واسع في المنطقة، خصوصا في ظل انعدام أفق تسوية القضية الفلسطينية والأزمة العميقة التي يمرّ بها النظام الحاكم في إسرائيل في الوقت الراهن.

(أكاديمي مصري)

زيارة حماس اللافتة إلى موسكو

ماجد عزام

حطَّ وفد رفيع من حركة المقاومة الإسلامية (حماس) بشكل مفاجئ الأسبوع الماضي في موسكو، بناء على دعوة رسمية من الحكومة الروسية. وبدت الزيارة لافتة ومهمة جداً قياساً للتطورات التي جدّت أخيرا، والمتعلقة بالجانبين تحديداً فيما يخصّ الاقتحامات الإسرائيلية للأقصى وأجواء المقاومة بمواجهتها التي تتموضع فيها «حماس» بشكل مركزي، كما الغزو الروسي لأوكرانيا وسعي موسكو إلى تخفيف عزلتها الدولية عبر التقرّب من الرأي العام العربي والإسلامي، كونها تعرف أن مواقف الأنظمة العربية - الإسلامية الرسمية المتساوقة والمتماهية معها لا تفيدها ولا رصيد شعبياً لها، إضافة طبعاً إلى سعيها إلى مماحكة أميركا والغرب، والحضور والمنافسة في منطقة حساسة وحيوية من العالم، عبر استقبال وفد قيادي لحركة يعدّها هؤلاء إرهابية في تصنيف ظالم ومنافق ومزدوج، يتعارض مع كل ما يقولونه عن روسيا وحق الشعب الأوكراني في مقاومة غزوها غير المبرّر لبلاده.

جرى الإعلان عن الزيارة فقط مع وصول وفد «حماس» برئاسة عضو المكتب السياسي مسؤول العلاقات الدولية، موسى أبو مرزوق، وعضوي المكتب، حسام بدران وفتحي حماد، وممثل الحركة في موسكو، ومن دون أي تمهيد مسبق، مع تأكيد أطراف حمساوية مطلعة أنها تمت بناء على دعوة مسبقة ولا ترتبط مباشرة بالتطورات الأخيرة في المسجد الأقصى والقدس وفلسطين بشكل عام خلال الأسبوعين الماضيين (شهر رمضان وذكرى «استقلال إسرائيل») أو التوتر الأخير أيضاً في العلاقة بين روسيا وإسرائيل على خلفية تصريحات وزير الخارجية سيرغي لافروف عن أصول يهودية للزعيم النازي أدولف هتلر، ما اضطر الرئيس فلاديمير بوتين شخصياً للاعتذار عنها في اتصاله مع رئيس الوزراء الإسرائيلي، نفتالي بينت، حيث تزامن الاعتذار مع وجود وفد حماس في العاصمة الروسية.

وهذا يعني أن الزيارة مرتبطة مباشرة بالغزو الروسي لأوكرانيا، وما أثاره من تداعياتٍ وردود أفعال عربية ودولية رافضة في معظمها الغزو، في سياقها الشعبي، وبالتالي يمكن استنتاج أن روسيا تسعى إلى التقرّب من الرأي العام العربي والإسلامي الذي تتمتع حماس والقضية الفلسطينية بدعمه وتأييده الكبير. مع الانتباه إلى أن استخدام الورقة الفلسطينية للتغطية على سياسات خاطئة ومرفوضة ومعزولة كان ولا يزال تصرّفاً موصوفاً لأنظمة الاستبداد في السجال والمماحكة مع الخصوم والأعداء، وزيادة الحضور والنفوذ الإقليمي والدولي، وهو ما فعلته أنظمة الفلول القدامى سيئة الصيت والساقطة في العالم العربي، رغم المحاولات اليائسة لإعادة إنتاجها أو تحديثها عبر الفلول الجدد في القاهرة ودمشق وعدن وبنغازي.

لا بد من التذكير أيضاً أن روسيا قوة قائمة بالاحتلال في أوكرانيا، تماماً كما إسرائيل في فلسطين. وكان هناك إقرار واضح من وزير الخارجية لافروف بذلك، حيث قال ردّاً على من يشعرون بالقلق من الغزو الروسي، اعتبروا أن أوكرانيا هي فلسطين وروسيا مثل أميركا وإسرائيل، بينما يتبدّى التناقض هنا ومباشرة في استقبال حركة مقاومة فلسطينية للاحتلال الإسرائيلي مع تجريم المقاومة الأوكرانية للاحتلال الروسي وشيطنتها.

في كل الأحوال، نحن أمام إقرار روسي بقيمة ومكانة حماس فلسطينياً وعربياً وإسلامياً، خصوصا بعد التطورات في الشهور والسنة الأخيرة بشكل عام، والتعاطي مع الحركة ليس بوصفها مجرّد رقم مهم فلسطينياً وعربياً، وإنما حتى حركة قائدة للشعب الفلسطيني تحكم نصف مواطنيه بالداخل في غزة، وتتمتع بتأييد نسبة مماثلة على الأقل في الضفة الغربية والشتات، في ظل عجز السلطة الفلسطينية في رام الله وانفصالها وقدراتها الضئيلة والمحدودة في التأثير على الأحداث والتطورات العاصفة والمتلاحقة حيث بدت غير ذات صلة ولا يكترث لها الفلسطينيون.

تعي حركة حماس ذلك جيداً بالطبع، وما كانت لترفض الدعوة، على الرغم من فهمها خلفيات هذه الدعوة طبعاً، خصوصا مع التطورات والأجواء المتوترة في المسجد الأقصى والقدس والأراضي الفلسطينية التي حمّلتها إسرائيل مسؤولية قيادتها بينما ردّت «حماس» على طريقة «تهمة لا ننفيها وشرف لا ندّعيه». وقد تزامنت الزيارة أيضاً بشكل مباشر مع التوتر الروسي الإسرائيلي، أخيرا، على خلفية الموقف الإسرائيلي الرسمي المتحفظ من الغزو الروسي لأوكرانيا، وتصريحات وزير الخارجية، يئير لبيد، عالية السقف عن جرائم الحرب الروسية في مدينة بوتشا، والردّ التصعيدي ضده وصولاً إلى الحديث حتى عن وجود نازيين في القيادة الأوكرانية رغم يهودية الرئيس فولوديمير زيلينسكي نفسه. وكانت موسكو قادرة على تأجيل الزيارة إلى حين انتهاء الأزمة، لكنها حرصت على حصولها في موعدها، حتى مع اعتذار بوتين لإسرائيل في أثناء استضافة وفد «حماس»، وهي إشارة لافتة وذات دلالة بحد ذاتها.

في العموم، يمكن تلخيص الموقف الروسي المتضمن تكريس مكانتها قوة عظمى، على الرغم من العزلة والقطيعة الغربية والدولية، وأن دعم القضية الفلسطينية وفق الحلّ المتفق عليه فلسطينياً وعربياً ودولياً لا يعني كسر الأواني مع الدولة العبرية والقطيعة، وإضعاف العلاقات معها، كما تبدّى أيضاً في تهنئة بوتين الدافئة والحميمة لإسرائيل بذكرى تأسيسها، وتبنّي روسيا لغة مماثلة تماماً للهجة أميركا والغرب تجاه التطورات في المسجد الأقصى، عبر مساواة الجاني بالضحية، ودعوة كل الأطراف إلى التهدئة وتجاهل جذر المشكلة المتمثل بالاحتلال وممارساته وقتل 50 فلسطينيا من مواطني الضفة الغربية في أثناء الاقتحامات العسكرية لها بمعزلٍ عن دخول «حماس» وقيادتها في غزة على الخط.

> روسيا تسعى إلى التقرّب من الرأي العام العربي والإسلامي الذي تتمتع حماس والقضية الفلسطينية بدعمه وتأييده الكبير
>
> استخدام الورقة الفلسطينية للتغطية على سياسات خاطئة ومرفوضة ومعزولة كان ولا يزال تصرّفاً موصوفاً لأنظمة الاستبداد

إذن، تمثل الهدف الروسي الأساسي ولا يزال، باستمالة الرأي العام العربي الإسلامي ومماحكة الغرب. ولا يمكن، بالطبع، استبعاد الرغبة في تعزيز الحضور فلسطينياً وعربياً، مع رسالة طمأنة بأن هذا يتم تحت السقف أو القواعد المحددة والمرسومة أميركياً والمقبولة إسرائيلياً، وغربياً ودولياً بشكل عام، ولو نظرياً ودعائياً. وفي السياق نفسه، يمكن وضع توجيه الدعوة إلى رئيس المكتب السياسي لحركة حماس، إسماعيل هنية، لزيارة موسكو الشهر المقبل، وفصائل أخرى في الصيف، لتحقيق الأهداف نفسها، وهي كسر العزلة باستخدام ورقة القضية الفلسطينية، ومماحكة الغرب ومنافسته من دون كسر الأواني مع إسرائيل، علماً أن التنسيق الأمني والعسكري مستمر في الساحة الأهم لها، سورية، كما قال وزير الدفاعين الجنرال بني غانتس، قبل أيام، وهو ما يهم تل أبيب بشكل أساسي مع اطمئنانها وعدم قلقها فعلاً، رغم تظاهرها أحياناً بعكس ذلك، من التحرّكات الروسية الدعائية فلسطينياً، مع التذكير أن موسكو تنحّت جانباً في أثناء مساعي فرض صفقة القرن والسلام الاقتصادي لدونالد ترامب، كما دعمت موجة التطبيع العربي الإسرائيلي أخيرا، حتى مع فهمها دلالات هذه الموجة وحيثياتها وأهدافها بتجاوز القضية للفلسطينية وإزاحتها عن جدول الأعمال العربي الإقليمي والدولي. أما حديثها عن عقد اجتماعات للرباعية الدولية واستئناف عملية التسوية فضريبة كلامية للاستهلاك الدعائي ترضي الفلسطينيين والعرب، ولكنها لا تؤذي إسرائيل أو تنعكس سلباً عليها في أي حال.

(كاتب فلسطيني في إسطنبول)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads